الترجمة جسراً لبناء المؤتلف الإنساني

عبد السلام بنعبد العالي ■

يُنقل عن إمبرتو إيكو قوله: «إن لغة أوروبا هي الترجمة». لا شكَّ أن المفكر الإيطالي يقصد أنه إن لم تكن هناك لغة موحِّدة للبلدان الأوروبية ـ على غرار السوق الموحّدة للاقتصاد ـ فإن الترجمة هي اللغة القادرة على مدّ الجسور بين تلك البلدان والتأليف بينها. لست أدري لماذا لم يذهب إيكو إلى القول: «إن لغة العالم هي الترجمة»! هذا ـ على أية حال، ما كان يعنيه صاحب «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي»، عندما كان يقول: «إن الترجمة أداةٌ لبناء الكونيّة». كانت هذه القولة في سياق ما يدعوه غوته «الآداب العالمية» Weltliteratur. لم يكن شاعر ألمانيا العظيم يقصد بذلك أن الأدب القومي يتسع ليحتضن آداباً أجنبية؛ ذلك أن ما يعنيه بِـ «الآداب العالمية» ليس هو مجموع الآداب الماضية والحاضرة، التي من شأن نظرة موسوعية أن تستحضره، وليس هو بالأحرى مجموع الأعمال الكبرى التي استطاعت أن ترقى إلى مستوى الكونيّة وتغدو تراث الإنسانية المتحضرة؛ إن الآداب العالمية عنده مفهوم تاريخي

■ أستاذ الفكر المعاصر بجامعة محمد الخامس في الرباط.

يهمُّ الوضع الحديث، الذي تتخذه العلاقة بين مختلف الآداب القومية. عصر الآداب العالمية في نظر صاحب الديوان الشرقي هو العصر الذي لا تكتفي فيه الآداب بالتفاعل فيما بينها، بل **تدرك وجودها، هي في إطار تفاعل ما يفتأ يتزايد.**

لا تعني كونيّة الآداب إذاً تطابقاً يذيب الآداب المحلية في وحدة ميتافيزيقية؛ وإنما وعي الذات بأن الآخر مكون من مكوناتها، ينطوي هذا المفهوم إذاً على نظرية في الذات والآخر، ومن ثم على مفهوم عن الترجمة تغدو فيه أداة، لا يقول غوته لتحديث الشعر، وإنما لإنعاشه وإعادة الحياة إليه، وزرْع الروح فيه Auffrischung. وإن كان مفهوم الانتعاشة هذا بعيداً عن مفهومنا الآن عن التحديث بُعدَ الآداب العالمية عن الأدب المعولم، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أن مفعوله على الأدب غيرُ بعيد عمّا نعنيه بمفعول التحديث، من حيث هو انفصال للذات عن نفسها، **وخروج الأدب عن ذاته واستنباته في غير موطنه.** فـ«عندما تذبل الآداب القومية فإنها تنتعش وترى الحياة من جديد عن طريق الآخر». ليست الانتعاشة إذاً مجرد بعث ونهضة جديدة، وإنما هي إعادة لبناء الذات، إنها إعادة النظر في القومي والمؤتلف الإنساني معاً، وهي تبدّل ونسخٌ وفسخٌ، إنها ـ كما يقول غوته ـ تناسخ للأرواح. «وأحسن أشكال التناسخ ـ كما يقول ـ هو أن نرى أنفسنا وقد عدنا إلى الحياة في آخر».

هذا التناسخ وهذه الانتعاشة تجعل الأدب يرى نفسه في أدب آخر ولغات أخرى، لكنها تجعله يرى نفسه على نحوٍ مغاير، يرى نفسه وقد بُعثت فيه حيواتٌ أخرى، وأدخل في شبكات أخرى من العلائق، وانفتح على ثقافات لم يكن ليتوقّع الحياة داخلها. إنها إقامة لكوجيطو مغاير، لا يرى الآخر في انفصال عنه، وإنما يدرك ذاته على أنه آخر، كما يقول الشاعر الفرنسي Je un autre.

يذهب غوته أبعد من ذلك، فيرى أن الآخر يبعث الذات من مرقدها، إنه يضمن لها البقاء. هذا ما سيقوله فيما بعد مواطنه بنيامين عن الترجمة،

من حيث إنها ما يضمن بقاء النصّ ودوام حياته Survie. كتب غوته بمناسبة ظهور الترجمة الإنجليزية لمسرحية شيلر *Wallenstein*: «إن المترجم لا يسدي خدمة لأمته فحسب، وإنما حتى للأُمم التي تتكلّم اللغات التي ترجم أعمالها؛ فقد يحدث أن تمتص أُمةٌ من الأُمم رحيق عمل من الأعمال وتستنفد قواه، فلا يبقى مجال للتمتع بذلك العمل ولا للاستفادة منه والارتواء من معينه. وهذا يهم الألمان الذين سرعان ما يلتهمون ما يعرض عليهم من أعمال، فيقضون عليها ويذيقونها شتى محن التقليد والمحاكاة. لذا فلا غرابة أن تبدو لهم إبداعاتهم الخاصة وقد انتعشت واسترجعت حياتها بفعل ترجمة جيّدة». بهذا المعنى يغدو الانفتاح على الآخر إنقاذاً للذات، وانتعاشاً لها.

لا تعني كونيّة الآداب إذاً تطابقاً يذيب الآداب المحلية في وحدة ميتافيزيقية؛ وإنما وعي الذات بأن الآخر مكون من مكوناتها، ينطوي هذا المفهوم إذاً على نظرية في الذات والآخر.

لو وضعنا هذا الإحياء على مستوى الوطن، على مستوى الخصوصي وعلى مستوى المؤتلف الإنساني؛ لتبيَّن لنا مدى الدّور الذي يمكن للترجمة أن تلعبه في تجسير العلاقة بينهما، بل في إعادة النظر في القومي ذاته. يروي أحد المؤرخين الفرنسيين لنظريات الترجمة أنه في سنة 1808 ـ وفي خضم الاحتلال النابليوني لألمانيا ـ أراد بعض المثقفين في ألمانيا وضع منتخب لأحسن الأشعار الألمانية؛ كي تكون في متناول عامة القراء، وبطبيعة الحال لم يكن المرمى القومي لهذا العمل ليخفى على أحد، خصوصاً في الظروف التي كانت تمر بها البلد. ولما طلب الساهرون على منتخب الأشعار مشورة غوته ليرشدهم إلى القصائد الدالة في هذا المضمار؛ كانت نصيحته الوحيدة التي أسداها إليهم هي أن يضمّوا إلى الدّيوان أيضاً ترجمات ألمانية لقصائد أجنبية، بحجة أن الشعر الألماني مدين بأهم أشكاله للأجنبي، وهذا منذ ميلاده، ثم لأن تلك الترجمات تشكّل ـ في نظر غوته ـ إبداعات لا تنفصل البتة عن الأدب الألماني.

ها هنا يمتزج القومي بالمؤتلف الإنساني، **ويغدو هذا المؤتلف مقوماً من مقومات القومي.**

لا عجب إذاً أن ترتبط الترجمة ـ عند كثير من اللغات ـ باستعارة العبور والنقل والتجسير. والظاهر أن هذا الارتباط لا يكتفي بالإشارة إلى عملية الوصل التي قد يفهم منها ـ في بعض الأحيان ـ الدمج والإدغام. وإنما هو يدلُّ بالضبط على المعنى الذي رأيناه عند المفكر الألماني في تحديده للأدب العالمي. من أجل توضيح هذا المعنى ربما وجب علينا أن نتوقف قليلاً عند مفهوم الجسر ذاته.

الجسر ـ كما تعرّفه كثير من القواميس العربية ـ هو «القنطرة ونحوه مما يُعبَر عليه»، إنه ما يربط ضفتين، ما يُوصِل طرفين، وما يشكّل وسيلةً للاتصال والتفاهم. يمتدّ هذا الاتّصال من المعنى الحسّي المباشر إلى المعاني الرمزية التي تدعو جسراً كلَّ ما يربط فيما بين الشعوب والثقافات واللغات، ساعياً إلى أن يوحّدها أو يقارب بينها فيسمح بالوصل والتلاقي. لكن مما يثير شيئاً من الاستغراب كونُ بعض المعاجم العربية (وعلى ذكر المعاجم فلا ينبغي أن ننسى أنها هي كذلك جسور) بدل أن تقتصر على هذا الوجه الاتصالي للجسر، تذهب عكس ذلك، فتحدّد الجسر على أنه «حدّ **فاصل** بين أرضين». لا شكَّ أن استغرابنا سيزداد حدّة عندما نتبيّن أن هذا الوجه الانفصالي في تحديد الجسر لا يقف عند المعنى اللّغوي للّفظ فحسب، وإنما يجد دعامته في الفكر الفلسفي، وعند واحد من أكبر الفلاسفة المعاصرين، عند مفكر ألماني آخر.

يذهب مارتين هايدغر إلى أن الجسر ـ بما يسمح به من قدرة على العبور ـ لا يكتفي بالربط بين ضفتين، وإنما «**يأتي بالضفتين ـ من حيث هما كذلك ـ يأتي بهما إلى الظهور**». يكشف الجسر، قبل كل شيء أن الضفتين اللتين يربط بينهما لا يتقدمان وجوده، إنهما ترتسمان عند الحاجة مثل خطوط الهروب التي يتحدث عنها دولوز. صحيح أن الضفتين كانتا موجودتين حين لم يكن هناك جسر. لكن الجسر ـ رمز الوصل

واللقـــاء ـ هو الذي يجعلنـــا نتبيّـــن انفصالهما بعضهما عـــن بعض. يقول هايدغر: «الجســـر يوصل الضفتين إحداهما بالأخرى، ومن ثمة فهو يميّز بينهما. بفضل الجســـر تنفصل الضفـــة الثانية لتنتصب فـــي مواجهة مع الأولى»، **تتمايز الضفتان بعضهما عن بعضهما بفضل الربط بينهما.**

يرمي الجسر إلى الربط بين المتعارضين من غير أن يدمجهما، وهو يوصل فضاءين متباعدين مـــن غير أن يوحّد بينهمـــا. بتعبير جيل دولوز: الجســـر هو مولد الاختلافـــات Le «différenciant» des différences، ما به يتلاقـــى المخالفـــان ويثبتـــان ذاتهمـــا بفضل الاختلافات. بهذا المعنى لا يمكننا التفكير في المتعدد من غير إقامة جسور بين الاختلافات، من غيـــر أن نؤكـــد الاختلافـــات فـــي علائقها المتبادلـــة. ها هنا تغـــدو الخصوصيات علائق و«بيْنِيات» لا تحيل إلـــى أطرافها المكوّنة بقدر ما ترد إلى الجســـر الرابط / الفاصل بينهما. فالوجود الفعليّ للروابط هو ما كان الفيلسوف الفرنســـي جان فال (J. Wahl) يعبّر عنه بقوله: «الوجود للمعيات (et) وليس للماهيات (est)».

يكشف الجسر، قبل كل شيء أن الضفتين اللتين يربط بينهما لا يتقدمان وجوده، إنهما ترتسمان عند الحاجة مثل خطوط الهروب التي يتحدث عنها دولوز. صحيح أن الضفتين كانتا موجودتين حين لم يكن هناك جسر.

العلاقـــة هي الأصل فـــي الـــذّات، وليس العكـــس. العلائق هـــي ما يُوَلّد الأطراف، وليســـت هي ما يتولّـــد بيْن الأطـــراف. هناك أوْلويـــة للعلاقة والبيْنيات على الأطراف والحدود. فلا شيء يتحقّق بذاته، كل عنصر يتولّد عما يتجاوزه. ولا وجود لـــكل موحِّد يقضي على الأطـــراف، ومن ثم على المشترك بينها. كل ما يوجد هو الانفتاح اللانهائي وحركة التّداخل والتعدّد التي لا تنقطع. هاهنا يغدو الكائن ترابطاً ظرفياً حركياً لا يخضع لأيّ مبدأ قار، وتصبح الوحدة مفهوماً ثانوياً، أعني يأتي ثانية، ما دامت توليفاً بين أطراف. لن يعود الاختيار مطروحاً بين الوحـــدة ونفيها، وإنما بين وحدة مفتوحة على إمكانات متعدّدة، وحدة مفتوحة على مشترك، وأخرى محدّدة

تحديداً أزلياً. ستغدو الوحدة هنا جمعاً يقال على المفرد؛ إنّها ـ على حدّ قول دولوز ـ «تركيب جغرافي، وليست نشأة تاريخية».

لن تعود المسألة الأساسية إذاً تحرير المتعدّد، وإنما توجيه الفكر نحو مفهوم متجدّد للواحد. كما لن يعود التعدّد هو ما يقابل الوحدة، وإنما ما يقابل الكثرة. الكثرة تقوم على مفهوم الوحَدة الحسابي وتنحل إلى «تعداد»، إنها كثرة من الوحَدات، أما التعددية فهي تروم خلخلة مفهوم الوحْدة ذاته، وتفكيك الثنائي وحدة/تعدد. الكثرة كثرة «خارجية»، أما التعددية فتقيم «داخل» الوحْدة؛ كي تجعل الاتصال ينطوي على انفصال، والوحدة تشمل حركة تضمّ أطرافاً. فليست علاقة الوحْدة بالتعدد كعلاقة الكلّ بالأجزاء، أو المجموع بمكوّناته، وإنما هي كعلاقة الهوية بالاختلاف. ليست التعددية ـ والحالة هذه ـ هي كثرة الوحدات، وإنما هي تعدّد الاختلافات. وبهذا تصير الوحدة من الحيوية بحيث تستطيع أن تستوعب التعدّد، ويصبح التعدّد مفهوماً باطنياً «يصدّع الوحدة ويضمّ أطرافها»، فيغدو إنسان التعددية ليس ذاك الذي يتكلم عدة لغات، وإنما ذلك الكائن السندبادي الذي «يوجد» بين لغات، وبين ثقافات. معنى ذلك **أننا لن نكون في عالم مشترك، لن نكون معاً بلغة واحدة.** فالتعدّد اللغوي هو السبيل إلى الوحدة المشتركة. من هنا تأتي عبارة إيكو التي تجعل الترجمة لغة أوروبا، وإشارة غوشه التي تجعلها أداة لبناء المؤتلف الإنساني.

إلا أن ما ينبغي التأكيد عليه هو أن هذا التعدّد ليس تساكناً بين عدة أشكال للأحادية اللغوية (plusieurs monolinguismes). كتب دولوز: «إن علينا أن نكون مزدوجي اللغة حتى داخل لغة بذاتها: علينا أن نحوز لغة أقلية داخل لغتنا نفسها بالذات، علينا أن نستخدم لغتنا نفسها استخداماً أقلياً. ليست التعددية اللغوية حيازة نظم عديدة يكون كل واحد منها متجانساً في ذاته فحسب؛ بل هي ـ أولاً ـ خط الهروب أو التنويع الذي يمسّ كل نظام مانعاً إياه من التجانس؛ لا أن نتكلم ـ كإيرلندي أو

روماني ـ بلغة أخرى سوى لغتنا؛ بل ـ بالعكس ـ أن نتكلم لغتنا نفسها كأجنبي». وفي هذا السياق يورد دولوز قولة بروست (Proust): «إن المؤلفات الرائعة تبدو وكأنها كتبت بلغة أجنبية».

لا يمكننا إذاً رفع شعار التعددية من غير إقامة جسور بين الاختلافات، من غير أن نؤكد الاختلافات في علائقها المتبادلة. آنئذٍ سيغدو الجسر أداة وصْلٍ وفَصْلٍ في الآن ذاته. لكن لا ينبغي أن نفهم الفصل؛ هنا على أنه إبعاد. إنه ضمّ وتوحيد، إلا أنه ليس توحيد المتطابق L'identique؛ وإنما توحيد المتخالف. إنه خلق للذات Le même بالمعنى الذي رأيناه عند غوته. نلمس معنى هذا الفصل الواصل إن نحن توقفنا عند الاشتقاق اللغوي لكلمة اختلاف Différence ذاتها في اللغة الفرنسية. نقرأ عند ج. بوفري ـ أحد كبار شرّاح هايدغر ـ «لنتأمل كلمة اختلاف différence هذا نقل فرنسي يكاد يكون حرفياً للكلمة الإغريقية ديافورا فورا آتية من الفعل فيري الذي يعني في اللغة اليونانية ـ ثم في اللاتينية Feri ـ حمَل ونقل... الاختلاف ينقل إذاً، فماذا ينقل؟ إنه ينقل ما يسبق في الكلمة ديافورا فُورا، أي السابقة ديا التي تعني ابتعاداً وفجوة... الاختلاف ينقل طبيعتين لا تتميّزان في البداية، مبعداً إحداهما عن الأخرى. إلا أن هذا الابتعاد ليس انفصاماً. إنه ـ على العكس من ذلك ـ **يقرّب بين الطرفين اللذين يبعد بينهما**. لذا كان هيراقليطس يقول عن الشخص الذي لا يكنّ له المحبة: إنه لا يعلم أنه لا يتفق مع نفسه إلا نتيجة الاختلاف».

لا يمكننا إذاً رفع شعار التعددية من غير إقامة جسور بين الاختلافات، من غير أن نؤكد الاختلافات في علائقها المتبادلة. آنئذٍ سيغدو الجسر أداة وصْلٍ وفَصْلٍ في الآن ذاته. لكن لا ينبغي أن نفهم الفصل؛ هنا على أنه إبعاد.

هذا الضمّ المفرّق، وهذا التوحيد المتعدّد، وهذا القرب المبعِد، والوصل الفاصل: هو ما يكشف عنه فيلسوف «الكينونة والزمان» في مفهوم اللوغوس Logos وفعل ليغيين؛ يقول: «هذا التوحيد الذي ينطوي

عليه فِعْلُ ليغيين لا يعني أننا نقتصر على جمع الأضداد وضمّها والمصالحة بينهما، الـكل الموحِّد يعرض أمامنا أشـياء يتنوع وجودهـا ويتباين، وقد اجتمعت في الحضور ذاته، مثل الليل والنهار، الشـتاء والصيف، السـلم والحرب، اليقظة والنوم، ديونيزوس وهاديس، إن هذا الذي ينقل (الشيء نحو ضده)، عبر المسـافة البعيدة التي تفصل الحاضر عن الماضي، إن هـذا الديافيرومنون هـو ما يعرضه اللوغـوس في حركـة انتقاله. وفعل اللوغوس ينحصر فـي عملية النقل هذه. إنه ما ينقـل. اللوغوس، الوجود الموحِّد ناقل وحامل».

اللوغوس إذاً، الذي من معانيه العقل والكلام المعقول، اللوغوس هو ما ينقل، إنه جسـر، وهو «ما يعرض أمامنا أشياء يتنوع وجودها ويتباين، وقد اجتمعت في الحضور ذاته». إنه ـ ككل جسر ـ ينقل طرفين لا يتمايزان في البداية مُبعـداً أحدَهما عـن الآخر، إلا أنـه ابتعاد يقـارب فيما بين الطرفين المتخالفين بالفعل ذاته الذي يفصـل بينهما. ما أبعدنا إذاً عن التوحيد الميتافيزيقي الذي يصنع هويات واهمة، هويات فقيرة، وتطابقات تقضي على كل تفـرّد. تقيم الجسـور هويات تعددية تضمهـا وحدة غير ميتافيزيقية تترك لكل عنصر نصيبه من التميّز، وتتيح بالنسـبة للمجموع حرية الحركة.

الجسـر لا يلاقي بين ضفتي نهـر فحسـب، وإنما يلاقـي فيما بين النصوص، بين اللغات وبين الأوطان والثقافات. إنـه ينقل أيضاً لغة إلى أخرى، ويجر بلداً نحو آخر. يشـبّه موريس بلانشـو عمل الترجمة ـ وهي تحاول التقريب بين لغتين ـ بعمل هرقل وهو يحاول التقريب ما بين ضفتي البحر. هذا العسـر وهذه الصعوبة ـ التي تتطلب قـوة جبّارة في مثل قوة هرقل ـ يدلان على أن ذلك التقريب هو ـ في الوقت ذاته ـ إبعادٌ. على أن الترجمة ـ شأن كل جسر ـ إذ تحاول أن تقرّب فيما بين اللغات؛ تعمل ـ في الوقت ذاته ـ على خَلْـق الاختلاف بينهما وإذكاء حدتـه. على هذا النحو فالترجمة لا ترمي هي كذلك إلى إلغاء الاختلاف بين اللغتين؛ وإنما تسعى

إلى توظيفه ورعايتــه. من هذه الزاويــة لا ينبغي أن يُنظــر إلى المجاز والعبور من لغة إلى أخرى أساساً كعملية لخلق القرابة، وإنما أيضاً كفعالية لتكريس الغرابة. فالترجمة ليست هي النصّ الذي كان سيكتبه المؤلف لو أنه تكلم لغة المترجم؛ إنها لا تهدف إلى أن تكون الآخرَ ذاتَه، ولا تنشغل بمدى تطابق النسخة مع الأصل، وإنما تسعى إلى إذكاء حدة الاختلاف حتى بين ما بدا متطابقاً. فالمســافة بين الذات والآخر لا يمكن أن تُلغى إلغاءً تاماً. الأمر هنا هو علــى نحو ما قلناه عن ضفتي النهــر. النص المترجَم ما يفتأ يَعْلَق بترجمته ككل ضفتين يربطهما جسر، لكن الترجمة تظلّ شفافة لا تســتبعد النص المترجَــم، ولا تصبح بديلاً عنه. إنها أداة لتمكين اللغة من أن تمتحن ذاتها على ضــوء الآخر، وهي وســيلة لتعريض الذات لمحنةٍ وامتحانٍ، تتلقى فيهما دفعاً عنيفاً يأتيها مما هــو أجنبي. هــذا الدفع هو الــذي يجعلها تشــعر بالغربة، لا أمام الآخر فحسب، **بل أمام ذاتها كذلك**. هذه الزحزحة هــي ما كان غوته يدعوه بعثاً وإحياءً وانتعاشة. بهذا تغدو الترجمةُ انفصالاً للثقافة عن نفســها، وللغة عن ذاتها، وللنص عن نفسه. كتب بلانشو: «يحاكي النصُّ المترجَم عمليةَ الإبداع التي تحاول ـ انطلاقاً من اللغة المألوفة، تلك التي نحيا فيهــا وبها، ونكون غارقين فيها ـ تحاول أن تعطي الحياة للُغة أخرى يبدو ظاهرياً أنها اللغة ذاتها؛ لكنها تشكّل ما هو غائب عنها، مخالف لها اختلافاً لا ينفكّ يحصل، ولا ينفكّ يختفي».

الترجمة عبور وحركة انتقال لا تنفكّ بين «أصل» ونسخة، إنها لا ترمي إلى أن تجرّ ضفة إلى أخرى، لا تريد أن تجر لغة نحو أخرى؛ وإنما تسعى لأن تقيم جسراً، وتخلق لغة ثالثة تلاقي بين لغتين، بين نصّين وثقافتين وموطنين.

الترجمة عبــور وحركة انتقــال لا تنفكّ بيــن «أصل» ونســخة، إنها لا ترمي إلــى أن تجرّ ضفة إلى أخرى، لا تريــد أن تجر لغة نحو أخرى؛ وإنما تسعى لأن تقيم جسراً، وتخلق لغة ثالثة تلاقي بين لغتين، بين نصّين وثقافتين وموطنين.

إن الترجمة ـ شأن كل جسر ـ لا تقضي على الاختلاف ولا تلغيه، وهي لا تصهـر الطرفين في وحدة مطلقـة؛ بل تربط أحدهمـا بالآخر، فتحوّل «القرب والبعد بين الأشياء والإنسان إلى مجرد مسافات Distances» على حدّ تعبير هايدغر. وهي مسافات يمكن قهْرها بمجرد قطْعها.

الجسر فضاء يحوِّل الانفصال بين ضفتي النهر إلى مجرد بُعدٍ مكاني، فيجعل الإنسان يشـعر أنه «يقيم بالقرب من الأشياء»، وأنه يقطنها وأنها «موطنه»، فتتحول علائق البعد والغربة ـ بما تحملانه من حمولة نفسية، بله وجودية ـ إلى مجرد أبعاد هندسـية. ألا تفعل الترجمة الفعل نفسـه؟ أليسـت هي ـ في نهاية الأمر ـ انفتاحاً على الآخر واستضافة له؟! أليست هي ما يجعل الغريب ضيفاً على الدّار؟! أليست ـ كما كتب أحدهم ـ مأوى البعيد؟! أليست «أداة لبناء المؤتلف الإنساني»؟!